الفصل الثالث

الفيلسوف ديوجنس

ظهر في مدينة براج أخيرًا رجل زَرِيُّ الهيئة، رثُّ الثياب، يحمل قنديلًا من الزجاج كتب عليه «أبحث عن العدالة والفضيلة».

فاجتمع الناس حوله حتى كادوا يعطلون «حركة المرور» فألقى البوليس القبض عليه، واستاقه إلى السجن وحقق معه، ثم أطلق سراحه فعاد إلى تجواله.

قالت الصحيفة التي روت الخبر: ولا جدال في أن هذا «الديوجنس العصري» سيقضي زمنًا طويلًا وهو يبحث وينقِّب دون أن يصل إلى غرضه.

والله أعلم بسر صاحبنا، وما دعاه إلى تشرده الفلسفي وبحثه مقتفيًا أثر ذاك الفيلسوف الكلبي.

وديوجنس الأصلي فيلسوف ولد وعاش ومات في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد.

كان أبوه صرَّافًا في مدينة سينوب، واتُّهم الأب والابن بتزييف النقود، فقبض على الأب وسُجن، ومات في السجن.

وطفش الولد، وأتى إلى مدينة أثينا مهبط العلم والحكمة والفلسفة في ذاك الحين، وتتلمذ لأنتينيوس الفيلسوف.

واشتهر ديوجنس بالتقشف والزهد في الحياة، فلم يكن له من المتاع سوى عصا وخُرْج وقدح من الخشب، فلم يكن يمشي بدونها. وكان لا يتوكأ على عصاه إلا إذا رحل إلى خارج أثينا، أو كان مريضًا.

واتخذ برميلًا وجعله مسكنًا له يأخذه معه أينما سار وحل، وعند اشتداد الحر يتدحرج على الرمال الساخنة، وفي الشتاء حينما يشتد البرد يُلصق جسده بالرخام، قاصدًا بذلك تعويد نفسه على تحمل مشاق الحر والبرد.

وكان يأكل وينام ويتكلم في أي مكان صادفه، وكثيرًا ما كان يقصد هيكل الشمس للخطابة والنوم.

وكان يعجب لعلماء الأدبيات؛ لأنهم يبذلون الجهد للوقوف على بعض الوقائع الخرافية الهزلية التي لا طائل تحتها.

ويسخر بالموسيقيين لتحملهم المشاق في ضبط الألحان وتنسيق الأنغام.

ويذم الفلكيين لتلهِّيهم برصد الشمس والقمر وبقية الكواكب، في حين أنهم لم يعرفوا حقيقة ما تحت أقدامهم.

سأله رجل عن الوقت الذي يأكل فيه، فقال له: إن كنت غنيًّا فكلْ في الساعة التي تعجبك، وإن كنت فقيرًا فكلْ في الساعة التي تجد فيها أكلك.

وسئل: ما أسوأ الحالات؟ فقال: الهرم مع الفقر.

وسئل: ما أحسن شيء في العالم؟ فقال: الحرية.

وسئل: لماذا يتصدق الناس على العُمْي والعُرْج ولا يتصدقون على الفلاسفة؟ فقال: لأن سائر الناس معرضون للعمى والعرج وليس منهم من يحلم بأن يكون فيلسوفًا.

وسئل: لماذا لقَّبوك بالكلبي؟ فقال: لأني أتملق من يعطيني، وأنبح على من يمنع عني بره، وأعض من يؤذيني.

وسئل: ماذا ربحت من فلسفتك؟ فقال: لو لم تنفعني إلا في التجلد على تحملي المشاق لكفى بذلك سرورًا.

ومن أقواله المأثورة: إن الحياء من ضعف النفس. ولذلك كان لا يستحيي من صنع أقبح الأشياء أمام الناس.

ومنها: أنفع الأشياء أقلها ثمنًا. فالصورة قد يبلغ ثمنها ثلاثة آلاف دينار، ومُدُّ الدقيق يباع بدراهم معدودة.

ومنها: حب الظهور ليس إلا فخر المجانين.

وشوهد يومًا يسير ظُهرًا وهو يحمل مصباحًا، فسئل في ذلك، فقال: لعلي أُبْصر رجلًا.

ومات ديوجنس، ونسيه الناس ونسوا فلسفته، ولكن «فانوس» ديوجنس لا يزال مشهورًا مذكورًا.

وقد ذهبت أيام الفلسفة الرواقية، والفلاسفة الحفاة، والجامعات الخلوية، وتغيَّرت الدنيا وما عليها، وتبدلت طرق البحث والتنقيب.

وإذا كان بوليس مدينة براج لم يعتقل مقلد ديوجنس، فلا بد أن يطبق عليه يومًا قانون التشرد.

فليدرك ذلك كل من تحدثهم أنفسهم أن يكونوا يومًا فلاسفة على مثال سقراط، وشيلون، وأفلاطون، وأرستيب، وأبيقور، وزيتون، وديوجنس كذلك.

لأن الفلسفة العصرية ليست بالحفاء، ولا العري، ولا النوم في البراميل، بل بأشياء أخرى يعرفها أساتذة كلية الآداب في الجامعة المصرية بالجيزة.